

محاضرة بعنوان:

**التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ
وَأَثَرُهُ فِي تَحْقِيقِ الْأَمْنِ الْفِكْرِيِّ**

ألقاها:

د. محمد أبو الفتح البيانوني

2010 – 1432

هـ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ..)/122/ التوبة.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل: (مَنْ يَرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يَفْقَهُ فِي الدِّينِ)¹.

ورضي الله عن آل بيته الطيبين الأطهار، وعن صحابته الأكرمين الأخيار، وعن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

أيها السادة:

فإن الأمنَ الفكري مُتَطَلَّبٌ حَيَوِيٌّ من متطلبات الإنسان اليوم، إن لم يكن من أهم المتطلبات التي تَتَطَّلَعُ الإنسانية كلها إلى تحقيقه في كل عصر ومصر... فهو لا يقل أهمية عن متطلبات الأمن الاقتصادي والاجتماعي، والسياسي والعسكري... ذلك الأمن العام الذي بشر به الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام لما أسكنه الجنة، فأشار إلى بعض أنواعه فقال له: (إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى..)/118-119/ طه.

والذي مَنَّ الله به على عباده، فقال سبحانه: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)/3-4/ قريش.

والذي وَعَدَ به عباده المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال سبحانه: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

¹ الحديث متفق عليه، انظر صحيح البخاري (150/1-151)، وصحيح مسلم (1037).

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا..)/55/النور.

وقد لاقى الإنسان في تاريخه القديم والحديث ما لاقى من ويلات الغلو والتطرف من جهة، ومن إفرازات الغزو الفكري بجميع أشكاله من جهة أخرى، ما جعله يتطلع إلى أَمْنٍ فكري يحقق له السعادة والاستقرار والطمأنينة في حياته، ويدفع عنه آثار التخلف والجمود، والغلو والتطرف الذي أصيب به العقل البشري، فَشَلَّ من حركته، وأفقده حيويته...

ولعل من أهم العوامل المحققة لهذا الأَمْن الفكري، التفقه في دين الله عز وجل بجميع جوانبه وأبعاده، ذلك التفقه الذي أشار إليه الحديث الشريف، وأناط به الحصول على الخير فقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يَفْقَهْهُ فِي الدِّينِ)¹.

والذي دَعَتْ إلى تحقيقه الآية الكريمة: (.. فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ..)/122/التوبة.

ومن هنا: رأيتُ من الضروري لبيان أهمية التفقه في الدين، والوقوف على أثره في تحقيق الأَمْن الفكري، أن أتناول في هذه المحاضرة النقاط التالية:

أ- مفهوم التفقه في الدين، ومفهوم الأَمْن الفكري.

ب- بيان مدى حاجة الإنسان إلى التفقه في الدين، وتحقيق الأَمْن الفكري.

ج- الآثار الإيجابية لتحقيق كل من التفقه في الدين، والأَمْن الفكري.

د- الآثار السلبية لفقدان تحقق التفقه في الدين، والأَمْن الفكري.

هـ- كيفية تحقيقهما، ووسائله.

سائلاً الله عز وجل التوفيق والسداد في القول والعمل

¹ الحديث متفق عليه، انظر صحيح البخاري (150/1-151)، وصحيح مسلم (1037).

أ. مفهوم التفقه في الدين، والأمن الفكري:

1- مفهوم التفقه في الدين:

لقد أُصِيبَ مفهوم التفقه في الدين في العصور المتأخرة بكثير من الخلل والقصور، كما أُصِيبَ بكثير من الإعراض والغفلة عن أهميته...

فَقَصَرَهُ قوم على التعرف على بعض الأحكام الفقهية: كالعبادات والمعاملات... وساعَدَهُم على هذا التصور الخاطئ، المَذْلُول الاصطلاحي الشائع لكلمة الفقه، وتعريفاته العلمية، حيث عَرَّفَ العلماء الفقه بأنه (العلم بالأحكام الشرعية العملية، من أدلتها التفصيلية)، فعكفوا على دراسة بعض الكتب الفقهية التي توضح تلك الأحكام، وعنوا بها عناية خاصة، فعاشوا مع متونها وشروحها وحواشيها، متوهمين أَنَّ مَنْ حفظ مثل هذه الأحكام، ودرس مثل هذه الكتب حصراً، فقد تفقه في الدين، ونال ذلك الخير الموعود به في الحديث الشريف!!

وَقَصَرَهُ آخرون على التعرف على روح الشريعة، ومقاصدها العامة، فتوسعوا في دراستها والتفكر فيها، وانطلقوا يفتون أنفسهم والناس من حولهم بما تُملي عليهم تأملاتهم وأفكارهم في هذه المقاصد، غافلين عن أهمية فقه النصوص الشرعية، وعن ضرورة الموازنة العلمية بين النصوص وبين المقاصد!!

وساعَدَهُم على هذا التصور، ما كتبه بعض العلماء عن أهمية علم المقاصد الشرعية، ودعوتهم إلى العناية بفقه المقاصد، وأن المقاصد الشرعية هي (روح الشريعة). كما أطلق عليها الإمام الشاطبي . من جهة، وما لمسوه من آثار علمية سيئة بسبب غياب فقه المقاصد عند كثير من علماء العصر، أو ضعفه والغفلة عنه من جهة أخرى...

وَعَقَلَ الطرفان عما يسببه هذا القصر لمفهوم التفقه في دين الله، والخطأ فيه من تشويه وتجزئة!!

ذلك: لأن الدين بمفهومه الصحيح الشامل: كل ما تعبد الله عز وجل به عباده من عقائد وعبادات، ومعاملات، وأخلاق... وكل ما شرعه لهم في جميع جوانب الحياة، وكل ما حواه كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم... فالتفقه في دين الله، يشمل التفقه في العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والأخلاق، والأحكام العامة، كما يشمل العلم بفقه الأحكام، وفقه المقاصد، وفقه المناهج، وفقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه الواقع، وما إلى ذلك من أنواع الفقه... فالتفقه في هذا كله، هو الذي يوصل إلى الخير الذي وعد به صاحبه في الحديث الشريف، وَحَظُّ المرء من هذا الخير المنشود، رَهْنٌ بمستوى تفقهه وفهمه لجميع تلك الجوانب والأحكام... وإلا، فأَيُّ خيرٍ لمن فقه جانباً دون جانب، أو عرف حكماً دون حكم، وأَيُّ خير فيمن علّم بفقهه، وجعل آخر!!

2- مفهوم الأمن الفكري:

ويُراد بالأمن الفكري: [تحقيق السلامة والطمأنينة لما يحمله المرء من فكر واعتقاد، يأخذ بيده إلى جادة الحق والهدى، ويُجَنِّبُه مهاوي الزيغ والضلال في الدنيا، ويُنجيه من العذاب والعقاب في الآخرة، ويحقق له الأمن على نفسه من الاعتداء عليه بسبب حمله لهذا الفكر]. وهو الذي أشار إليه الحديث الشريف، بقوله صلى الله عليه وسلم: (إني تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به، فَلَنْ تَضَلُّوا أبداً؛ كتابُ الله وسنة نبيه)¹. وقوله: (تركتم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)².

¹ الحديث: رواه الحاكم، وقال عنه: صحيح الإسناد، انظر (الترغيب والترهيب) للمنذري (8/1) ط قطر.

² رواه ابن ماجه في المقدمة (6)، وأخرجه أحمد في المسند (126/4).

والأمنُ الفكري هو الذي تراوح خطه البياني في تاريخ البشرية قديماً وحديثاً، بين ارتفاع وهبوط، وبين تردد واضطراب، فعاش الناس بين أمنٍ وخوف، تبعاً لاهتداء البشرية بدين الله عز وجل، أو لإعراضها عن هديه...

قال تعالى مؤكداً هذه الحقيقة: (قَالَ: اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۚ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَأَمَّا يَا تِينَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) (123-127/طه).

ومن تعريفنا للأمن الفكري، وتوضيحنا لمفهومه، يظهر لنا فيه جانبان يكمل أحدهما الآخر، جانبٌ يتعلق بطبيعة الفكر الذي يحمله المرء، هل هو حقٌّ أم ضلال، وجانبٌ يتعلق بموقف الآخرين من هذا الفكر، مسالمةً له، أو اعتداءً عليه، فلا يتحقق الأمن الفكري للإنسان إلا بتحققهما معاً.

ب . بيان مدى حاجة الإنسان إلى التفقه في الدين لتحقيق الأمن الفكري:

تحقيقُ الأمن الفكري للإنسان مرهونٌ . كما سبق بيأته . باهتدائه بهدي الله خالق الإنسان (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (14/الملك).

إذ به تُنَاط سعادة المرء في الدنيا، وفوزه في الآخرة، ويقع بسبب فقده في مهاوي الشقاء في الدنيا، والخسران في الآخرة.. كما صرّحت بذلك الآيات القرآنية السابقة من سورة طه.

ولا ننسى أن الأمنَ الفكري، أساسُ كل أمنٍ، فإذا تحقق للإنسان، تبعته أنواع الأمن الأخرى، بجميع أنواعها: النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها... وإذا فُقد أو ضُغِف، اضطربت حياته، وتزعزع استقراره مهما امتلك من مقومات الأمن الأخرى...

ومن هنا: أعجبني . وأنا أتصفح بعض المواقع على الشبكة العنكبوتية . تعريف صاحب السمو الملكي، الأمير نايف بن عبد العزيز . حفظه الله . حيث عرّف

الأمن الفكري بأنه: [جزء من منظومة الأمن العام في المجتمع، بل هو ركيزة كل أمن، وأساس كل استقرار]¹.

ولما كان تحقيق الأمن الفكري للإنسان مرهوناً بالاهتداء بهدي الله، كانت الحاجة كبيرة ومُلحّة إلى معرفة هذا الهدي، والتفقه فيه...

ومن هنا: وصِفَتْ حالة العرب في الجاهلية، قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنها حالة جهالة جهلاء، وحالة ضلالة عمياء، حيث أشرك الناس بعبادة الله عز وجل عبادة غيره من الحجر والشجر، وعكف الناس على عبادة الأوثان والأصنام التي يصنعونها بأيديهم، ثم يلوذون بها، ويلجئون إليها في شدتهم!!

وقد أفرزت تلك الحالة الجاهلية ما أفرزت من سلبيات: فدارت بين الناس حروب لأتفه الأسباب، ووذت البنات، وانتهكت الحرمات...

كما وقع آخرون من العرب وغيرهم في أنواع أخرى من الشرك، فعبدت الشمس والقمر، كما عبد الجن والبقر...

فعمّت مظاهر الضلالة وتنوعت، واستحققت تلك المراحل قديمها وحديثها وصف الجاهلية بكل أبعادها ومعانيها...

ومن هنا: تبرز أهمية التفقه في الدين، والتعرف على هدي الله، لينقل الإنسان من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ويأخذ بأيدي المهتدين بهدي الله إلى سبيل الطمأنينة والسعادة في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى في معرض الامتنان على عباده:

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) /15-16/ المائدة.

ج . الآثار الإيجابية لتحقيق كل من التفقه في الدين والأمن الفكري:

¹ انظر موقع /www.assakina.com/

مادام التفقه في الدين وسيلةً من وسائل تحقيق الأمن الفكري، وما دام الأمنُ الفكري أساسَ كلِّ أَمْنٍ واستقرار للفرد والمجتمع، كان من السهل علينا الوقوف على إيجابيات تحقيقه الواسعة في حياة الأفراد والمجتمعات...
وسأحاول في هذه الفقرة أن أسرد هذه الآثار الإيجابية، الفردية منها والجماعية، سرداً نظراً لكثرتها وتشعبها، مع تعليقات لتوضيح بعض نقاطها...

أ- الآثار الإيجابية في الجانب الفردي. من ذلك:

- 1- شعور الفرد بحريته الإنسانية: فالإنسان إذا تحقق له التفقه في الدين، وأَمِنَ على فكره، استشعر بحقيقة الحرية، وعلم أنه عبدٌ لله وحده، وسيّدٌ على كل ما حوله.
- 2- قيامُ الفرد بوظيفته في هذه الحياة على أحسن وجه: فيحقق الخلافة في الأرض، ويعمل على إعمارها في ضوء منهج الله.
- 3- تحرُّر الفرد من عُقدة الخوف من المجهول، ورضاءه بالقدر خيرهِ وشرهِ من الله تعالى.
- 4- انطلاقُ الفرد بقناعاته الفكرية، ومحاورة الآخرين في قناعاتهم دون رهبة أو مجاملة.
- 5- شعور الفرد بالسعادة والطمأنينة في حياته الدنيا، فلا كآبة لديه ولا إحباط، ولا يأس عنده ولا قنوط.
- 6- طمأنينة الفرد لحسن العاقبة في الآخرة في ظل رحمة الله عز وجل، مادام مهتدياً بهدي الله.
- 7- تَطَلُّعُ الفرد إلى إسعاد الآخرين بدعوتهم إلى الهدى الذي سعد به، على بصيرة وهدى من ربه.
- 8- توازن الفرد في سلوكه الشخصي، وفي علاقته مع الآخرين.
- 9- حُبُّ الفرد للخير، وكراهيته للشر، وتسامحه مع الآخرين، وإعذاره للمخالفين.

10- علو همة الفرد، وارتفاع معنوياته، وتطلعه دائماً إلى التقدم والترقي.
إلى غير ذلك من آثار إيجابية متنوعة، يصعب على الباحث حصرها...

ب- الآثار الإيجابية في الجانب الجماعي. من ذلك:

1- انتشار الأمن في المجتمع بجميع أنواعه وأشكاله، وعند جميع أطيافه ومكوناته.

2- استشعار المجتمع بالحرية، ونبذ العبودية والتبعية.

3- تحرك المجتمع بجميع مؤسساته في ميادين التنمية الاجتماعية في جميع جوانبها، والترقي بها.

4- تطلع المجتمع إلى موقف الريادة والقيادة في مختلف المجالات.

5- تحقيق التعايش السلمي بين مختلف شرائح المجتمع ومكوناته.

6- إحسان العلاقات الاجتماعية: الداخلية والخارجية.

7- سيادة روح المحبة في المجتمع، وحب الخير للآخرين، ونبذ روح البغضاء والشحناء والعداوات...

8- بروز المجتمع القدوة في جميع مؤسساته، وتوجه الآخرين إلى التآسي به وتقليده.

إلى غير ذلك من آثار إيجابية متنوعة، يصعب على الباحث حصرها...

د . الآثار السلبية لفقدان التفقه في الدين والأمن الفكري:

يسهل علينا الوقوف على الآثار السلبية لفقدان كل من التفقه في الدين، والأمن الفكري، أو ضعفهما في الفرد والمجتمع، بعد وقوفنا على الآثار الإيجابية في الجانبين، لأن الشيء يُعرف بمعرفة نقيضه، وبضدها تتميز الأشياء.

وسأسردها موجزة في المجالات الفردية والجماعية، كما فعلت في الآثار الإيجابية، لتكتمل الصورة أمام الناظرين والباحثين عنها.

أ- الآثار السلبية في الجانب الفردي. من ذلك:

- 1- سيطرة الخوف على الفرد، وشعوره بالدونية والتبعية.
 - 2- تهاون الفرد في أداء وظيفته في هذه الحياة، والافتكال فيها على غيره.
 - 3- الانغلاق والانكماش بقناعاته الفكرية، ومصادمة الآخرين بقناعاتهم.
 - 4- شعور الفرد بالاضطراب والقلق في حياته، ووقوعه أحياناً في الكآبة والإحباط، واليأس والقنوط...
 - 5- الانكفاء على النفس، وعدم الحرص على نفع الآخرين...
 - 6- اضطراب السلوك الشخصي، وفساد العلاقة مع الآخرين.
 - 7- ظهور الأنانية والأثرة، والميل إلى العنف والتطرف، والانتقام من المخالفين.
 - 8- ضعف الهمة، وانخفاض المعنويات، والرضا بالواقع.
 - 9- ضنك الحياة والمعيشة، وتَشَكِّي الفرد دائماً مما حوله.
 - 10- ضمور التفكير، والوقوع في شذوذ الفكر وعجائبه.
- إلى غير ذلك من سلبيات متنوعة، يصعب على الباحث حصرها...

ب- الآثار السلبية في الجانب الجماعي. من ذلك:

- 1- انتشار الخوف في المجتمع بجميع أنواعه وأشكاله، وعند مختلف أطيافه ومكوناته.
- 2- استشعار المجتمع بالعبودية، والوقوع في براثن الاستعمار والتبعية.
- 3- ضمور التنمية الاجتماعية، وضعفها في جميع مؤسسات المجتمع.
- 4- انتشار العداوة والبغضاء بين مختلف شرائح المجتمع ومكوناته.
- 5- إساءة العلاقات الداخلية والخارجية.

- 6- انتشار ظاهرة العنف والتطرف، والميل إلى الاعتداء والانتقام.
- 7- سوء النظرة إلى المجتمعات الأخرى، ونبذ التعاون معها، والعمل على محاصرتها والتضييق عليها.
- 8- فساد التركيبة الاجتماعية، وانحلال الروابط الأساسية بين الأفراد والأسر...

إلى غير ذلك من آثار سلبية متنوعة، يصعب على الباحث حصرها...

هـ . كيفية تحقيق التفقه في الدين والأمن الفكري ووسائل الحفاظ عليهما:

يتبين لنا مما سبق: أنه لا يمكن أن يتحقق الأمن الفكري، إلا بالتفقه في دين الله عز وجل، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فبقدر ما يشيع التفقه في الدين بين أفراد المجتمع ومؤسساته، يعم الأمن الفكري في الأفراد والمجتمعات، وبقدر فقده أو ضعفه، يزول الأمن أو يضعف...

ولعل من أهم وسائل تحقيق التفقه في الدين المؤدي إلى تحقيق الأمن الفكري، ما يلي:

1- تصحيح مفهوم التفقه في الدين، وتجليته للناس بمعناه الكامل الشامل لكل من

فقه الملة، وفقه الشريعة، وفقه المنهج... والتأكيد على أنه لا يغني فقه واحد من هذه الأنواع عن غيره. وأنه هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يرد به الله خيراً يفقهه في الدين)، ذلك لأن دين الله عز وجل: عقيدة، وشريعة، ومنهج.

يقول الله تعالى مبيناً العقيدة الصحيحة: (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) / 161-163/ الأنعام.

ويقول سبحانه مشيراً إلى وحدة ملة الكفر، ووحدة ملة الإيمان: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ/37-38/يوسف.

كما يقول سبحانه، مبيناً الشريعة والمنهج، وتعددهما: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَخْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
اسْتُخْفِطُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...) إلى أن قال: (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ
بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ...) إلى أن قال: (وَأَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ¹/44-48/المائدة.

2- السعي الحثيث في طلب العلم ونشره بين الناس، فيقدر ما ينتشر العلم، ويندثر
الجهل، يتحقق الأمن الفكري في الأفراد والمجتمعات، وما أكثر النصوص
الشرعية الحاثية على طلب العلم ونشره...! ولكم عانت الأمة في عصورنا
المتأخرة من ويلات الجهل!! إذ قامت دعوات، وتحركت جماعات لم تتفقه في
دين الله على الوجه الصحيح، ترفع شعارات صحيحة في غير موضعها، وتدعو
إلى تحركات في غير أوانها، متسلحةً فيها بسلاح الدين، فأساءت بذلك إلى الدين
نفسه، وشوهت بعض شعائره، فسُفِكت الدماء، وهُتِكت الأعراض، ودُمِرت الديار
باسم الجهاد (ذروة سنام الإسلام)!! غافلة عن حقيقته وضوابطه، وهي تظن أنها
تُحسِنُ صنعا!!!

3- الرجوع إلى العلماء الموثوقين في دينهم وعلمهم، وأخذ العلم عنهم، وتجنب
الرجوع إلى الجهلة بجميع درجاتهم وأصنافهم.. استجابة لقول الله تعالى: (فاسألوا

¹ يراجع لتفصيل ذلك كتاب (المدخل إلى علم الدعوة) للمحاضر نفسه.

أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (43/النحل. وقوله سبحانه: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...)(83/النساء.

وقد حَذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمَّته من الرجوع إلى غير العلماء، وأخذ الفتوى من غيرهم من الجاهل، فجاء في الحديث الشريف: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)1. ولكم تصدر للفتوى في أيامنا المعاصرة، بعض المتقنين من أبناء الأمة، وترأسوا حركاتٍ وجماعات، وأصدروا الأحكام والفتاوى دون الرجوع إلى العلماء والمتخصصين، محتجّين بمقولة صحيحة أريد بها باطل: (أن لا كهنوتية في الإسلام) فسوّوا بذلك بين العالم والجاهل، فكانوا سبب ضلالٍ وإضلال!!

4- العمل على سدِّ الفجوة بين الفقهاء والمفكرين، فلطالما عانت الأمة من ظاهرة الانفصال بين الفكر والفقهاء!! حيث نشأت في غياب (الوعي الفقهي) وضعف (التفقه في الدين) ظاهرة الانفصال بين الفقه والفكر، فوجدت طائفة قرأت عن الإسلام كثيراً، وفكّرت فيه، وعاشت هموم المسلمين المعاصرة، ولكنها لم يكتب لها أن تتعلم العلوم الشرعية الضرورية، ولم تنشأ على الضوابط الفقهية والعلمية، فدعت إلى الإسلام بفكرها، ودافعت عنه بمقالاتها وعرفت (بالمفكرين).

كما وجدت طائفة أخرى، اهتمت بالعلوم الشرعية، وأتقنت بعضها، ولكنها لم تعيش عصرها، ولم تشارك في هموم مجتمعاتها، فجاءت فتاواها وأحكامها بعيدة عن روح الشريعة في معالجة الأوضاع، وعرفت (بالفقهاء والعلماء). وتوزع الناس بين هاتين الطائفتين، وتبع كثيرٌ من شباب الأمة أولئك المفكرين الذين كانوا أقرب إليهم من أولئك الفقهاء، واستقلَّ بعض أصحاب الفكر والنشاط بفكرهم

¹ الحديث متفق عليه، انظر صحيح البخاري (174/1-175) وصحيح مسلم (2673).

يدعون ويفتون، ويخططون ويعملون، فصدرت فتاوى بعيدة عن العلم، خارجة عن الضوابط، تناقلها الناس، وأخذت طريقها في صفوف الصحة المعاصرة. ولم يعرف تاريخ الأمة المسلمة في صدرها الأول فصلاً بين العلم والعمل، ولا بين الفقه والفكر، فقد كان العالم في هذه الأمة هو المفكر، والمفكر هو العالم، وعرف هؤلاء بالقراء والعلماء، تبعاً لنظرة الإسلام المتوازنة إلى العقل والنقل، وموقف المسلم الوسط بين التفكير والتسليم... حتى أتى على الناس زمان اختل فيه هذا التوازن، وظهرت النزعة العقلية والاعتزالية، فأعمل العقل في غير مكانه، وقدم على النقل في بعض المواطن...

ثم أتى على الناس حينٌ من الدهر، قلَّ فيه العلماء، وضعفت فيه التقوى، وطغَتْ فيه الغفلة، وكُسِلَتْ فيه الهمم عن متابعة العلوم الشرعية، واكتفى بعض طلبة العلم بعلوم سطحية، وثقافة عامة، ورضوا بالحصول على شهادات رسمية، والوصول إلى ألقاب علمية، وظهرت بذلك طبقةٌ جديدة من المثقفين، لا تستطيع أن تصفها بعلم ولا جهل، لأنها تحمل قسطاً من علم، وترفع شعارات علمية براقية، وتتسلح بألقاب وشهادات، وملأت الساحة العلمية الفارغة!

وانزوت في الوقت نفسه النُّلة القليلة من العلماء والفقهاء، وانحصر علم كثير منهم في نفوسهم أو في مدارسهم، وقلَّ نفعهم حتى في أقرب الناس إليهم، وفقد كثير منهم ثقة الناس من حولهم... ودارت معركةٌ بين المفكرين والفقهاء، أو بين الدعاة والعلماء، فزاد الطين بِلَّةً، والمشكلة عُقدة، وكان من ضحيتها شباب الصحة الإسلامية المعاصرة، حيث تداخلت عليهم الدوائر، واختلت فيهم الضوابط، وخبط كثير منهم في دينهم خبط عشواء، وأصبحوا يستقون علمهم وفتاواهم من خلال القنوات الفضائية، والشبكات العنكبوتية...

من هنا: كان لا بد لمريدي الإصلاح، من العمل الجاد على سد هذه الفجوة الكبرى بين المفكرين والفقهاء، وإقامة التعاون فيما بينهم، ليفيد بعضهم من بعض في بيان الحكم الشرعي، وتفقيه الناس بدينهم، آخذين بأيديهم إلى برّ الهدى

والأمان، ومجتبيين لهم مهاوي الضلال والإضلال... كما لا بد من توعية الناس بضرورة الرجوع في العلم والفتوى إلى أهل الاختصاص من العلماء، والاستفادة من المفكرين في مجال الفكر، فإن لكل ميدان رجاله وفرسانه¹.

5- العودة بالدعوة إلى الله إلى بيوت الله عز وجل، والعمل على إحياء رسالة

المسجد في حياة الأمة: فالمساجد بيوتُ الله عز وجل، وملجأُ عباده المتقين، وملاذ المؤمنين، وهي البيوت التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب².

فلا بد لتحقيق التفقه في دين الله، وتحقيق الأمن الفكري من أن تعود للمساجد رسالتها، فتكثر فيها حلقات العلم والذكر، ليشيع العلم، ويُقضى على الجهل، وتعود كما كانت محاضنَ تربوية، ومدارس علمية، ومراكز ثقافية واجتماعية، تُصنع فيها الرجال، وتُربى فيها أبناء الأمة رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، يوزع فيها الإرث النبوي على مُستحققيه، وينعم الجميع ببركاته وخصائصه...

ويوم بُعِثت الدعوة عن بيوت الله، ولجأت إلى البيوت والكهوف والخلوات، وبُعِثت بذلك عن الأجواء الروحانية، والنفحات الربانية، نبتت بين الشباب بذور الفتنة، ونمت فيهم ظواهر الغلو والتطرف، ومال كثير منهم إلى أساليب العنف والإرهاب، فجلبوا للأمة الويلات، وتتابع عليها النكسات والنكبات...!!

¹ يُرجع في تفصيل علاج هذه الظاهرة إلى محاضرة لي بعنوان: (ظاهرة انفصال الفكر عن الفقه وخطرها على الدعوة الإسلامية) سبق أن ألقيتها في مؤتمر من مؤتمرات المسلمين في أمريكا، ونشرتها رابطة الشباب المسلم العربي في الولايات المتحدة عام 1411/هـ . كما يراجع بحث لي بعنوان: (الوعي الفقهي ضرورة حيوية لأبناء الصحوة الإسلامية) سبق تقديمه إلى ندوة (مقتضيات الدعوة في ضوء المعطيات المعاصرة) نظمتها جامعة الشارقة عام 1422/هـ الموافق 2001/م .

² انظر الآيات /36-38/ من سورة النور .

6- العمل على رفع مستوى الأئمة والخطباء، والترقي بالدعاة والمدرسين: فالعلماء

ورثة الأنبياء، وهم السادة والقادة الذين مثلوا في الحديث الشريف بنجوم السماء، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ، كَمَثَلِ نَجْمِ السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا انْطَمَسَتْ النُّجُومُ، يَوْشِكُ أَنْ تَضِلَّ الْهَدَاةُ)¹. فلا بد أن يُعْمَلَ على رفع مستواهم، والترقي في أدائهم ليكونوا على مستوى المسؤولية المناطة بهم، فتحيا بهم رسالة المسجد، علماً وتعليماً، وتزكيةً وتأديباً، ودعوة وتوجيهاً...

إلى غير ذلك من وسائل تُعين على تحقيق النِّقَاح في الدين، المؤدي إلى تحقيق الأمن الفكري في الأفراد والمجتمعات...

وختاماً: أسأل الله عز وجل الذي أتم على المسلمين نعمته، وأكمل لهم دينه، وارضى لهم الإسلام ديناً: أن يُعِمَّ نعمة الأمن على المسلمين، وأن يُبدلهم من بعد خوفهم أمناً... كما وعد عباده المؤمنين فقال سبحانه:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا.../55/النور.

والحمد لله رب العالمين

كتبها

د. محمد أبو الفتح البيانوني

حلب - سوريا

¹ ساق هذا الحديث: الحافظ الخطيب البغدادي . رحمه الله . بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً، في كتابه (الفقيه والمتفقه)(70/2)، كما روي في المسند بسند فيه ضعف (157/2).